الشرح الموضوعي

على

(كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)

للإمام محمد بن عبدالوهاب

وبحاشيته (القول السديد في مقاصد التوحيد للشيخ السعدي)

جمع الشيخ

الوليد الشعبان

حفظه الله

عضو مركز الدعوة والإرشاد بمنطقة حائل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، أما بعد :

فبين أيدينا كتاب قيم ومبارك هو (التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد) للإمام المجدد المصلح محمد بن عبدالوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفىٰ سنة ١٢٠٦هـ، وقد وقعت علىٰ مذكرة لبعض الإخوة من طلبة العلم بعنوان (الشرح الموضوعي علىٰ كتاب التوحيد) فقرأتها مرة بل مرات واستفدت منها كثيرا - وكانت طريقة شرحه شرحا موضوعيا - حيث إن كتاب التوحيد يشتمل علىٰ (٦٦) بابا، وهذه الأبواب يمكن حصرها في ثمانية محاور أساسية كل محور تحته عدة أبواب، فكان يذكر طرفا من الآية أو الحديث ثم يشرحه - ، فاستعنت بالله وزدت فيه ما يلي :

١) ذكرت كامل التبويب.

٢) ذكرت الآية أو الحديث كاملين كما في أصل المتن إلا موضع أو موضعين، اكتفيت بذكر طرف الحديث نظرا لطوله .

٣) من يقرأ هذا الجمع يكون قرأ كامل الكتاب .

٤) ربما أكتفي بحديث واحد في الباب يكون هو العمدة - وهذا قليل -.

٥) أضفت عليه حاشية القول السديد في مقاصد التوحيد للعلامة عبدالرحمن السعدي.

والآن نشرع في المقصود وبه الثقة وعليه التكلان

المحور الأول

(توحيد الألوهية :مفهومه -أهميته- فضله-الدعوة إليه- حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له)

أرقام الأبواب الداخلة في هذا المحور(١-٢-٤-٥-٢١-٦٥)

كتاب التوحيد

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله:﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى قوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية.

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنت رديف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ »فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا» فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه

* الشَّرْحُ *

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: كتاب التوحيد هذه الترجمة تدل علىٰ مقصود هذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره؛ ولهذا استغني بها عن الخطبة، أي أن هذا الكتاب يشتمل علىٰ توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه، وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم أو يكمل.

اعلم أن التوحيد الـمطلق: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال، والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة.

وهو ثلاثة أقسام: أحدها: توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب- جَلَّجَلَالُهُ- بالكمال الـمطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة علىٰ الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية: بأن يعتقد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربىٰ جميع الخلق بالنعم وربىٰ خواص خلقه- وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح الـمثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية، ويقال له توحيد العبادة: وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه الـمألوه الـمعبود؛ لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلىٰ خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالىٰ بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه.

* ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم: الدعوة إلىٰ هذا التوحيد.

فذكر الـمصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل علىٰ أن الله خلق الخلق؛ لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب الـمفروض عليهم.

فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلىٰ هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين علىٰ هذا الأمر بهذا التوحيد ووجوبه.

فالتوحيد هو حق الله الواجب علىٰ العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

(١) باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل). أخرجاه. ولهما في حديث عتبان: (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ قال: «قال موسى: يا رب، علمني شيئا أذكرك وأدعوك به». قال: «قل يا موسى: لا إله إلا الله»، قال: كل عبادك يقولون هذا؟ قال: «يا موسى! لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري؛ والأرضين السبع في كفة؛ ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله». رواه ابن حبان والحاكم وصححه. وللترمذي وحسنه

عن أنس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ: سمعت رسول الله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة».

* الشَّرْحُ *

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ:

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم علىٰ جميع العبيد، ذكر هنا فضله، وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء ـ من الأشياء له من الآثار الحسنة، والفضائل المتنوعة ـ مثل التوحيد فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

* فقول المؤلف ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ: (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص علىٰ العام، فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره، كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

* ومن فضائله: أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، ودفع عقوبتهما.

ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار، إذا كان في القلب منه أدنىٰ مثقال حبة خردل.

وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

* ومنها: أنه يحصل لصاحبه الهدىٰ الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.

* ومنها: أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه.

* ومن أعظم فضائله: أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها علىٰ التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

* ومن فضائله: أنه يسهل علىٰ العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخفف عليه الطاعات لما يرجوه من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشىٰ من سخطه وعقابه.

* ومنها: أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

* ومنها: أنه يخفف عن العبد المكاره، ويهون عليه الآلام. فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان، وتلقيه المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

* ومن أعظم فضائله: أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.

ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله، لا يرجو سواه ولا يخشىٰ إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

* ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققا كاملا بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيرا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة

التي فيها (لا إله إلا الله) التي وزنت تسعة وتسعين سجلا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر؛ وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا الـمبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرىٰ وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

* ومنها: أن الله يدفع عن الـموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

(٢) باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا ... إلى قوله: هذه أمتك؛ ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام؛ فلم يشركوا بالله، وذكروا أشياء.

فخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة».

* الشَّرْحُ *

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له.

فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد، وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلىٰ الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار علىٰ شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلىٰ دخولها وإلىٰ تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه: كمال القنوت لله وقوة التوكل علىٰ الله بحيث لا يلتفت القلب إلىٰ الـمخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه، وأقواله وأفعاله، وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصودا بها وجه الله ـ تعالىٰ ـ، متبعا فيها رسوله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، والناس في هذا الـمقام العظيم درجات: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]

وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوىٰ الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة.

فمن حقق التوحيد علىٰ هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل الـمشار إليها في الباب السابق بأكملها، والله أعلم.

(٤) باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

عن ابن عباس ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ـ وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله ـ فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».أخرجاه.

ولهما عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم خيبر: (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقيل: هو يشتكي عينيه يا رسول الله، قال: «فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع وأعطاه الراية»، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟، فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)، يدوكون: يخوضون.

* الشَّرْحُ *

هذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرا وباطنا، والخوف من ضده، وبذلك يكمل العبد نفسه.

ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء، فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهي طريقة سيدهم وإمامهم

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام ودعا إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لم يفتر ولم يضعف، حتىٰ أقام الله به الدين، وهدىٰ به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه، ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلىٰ الله وإلىٰ توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها علىٰ التوحيد.

فكما أن علىٰ العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلىٰ الله بالتي هي أحسن، وكل من اهتدىٰ علىٰ يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وإذا كانت الدعوة إلىٰ الله، وإلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله فرضا علىٰ كل أحد، كان الواجب علىٰ كل أحد بحسب مقدوره.

فعلىٰ العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما علىٰ غيره ممن ليس بعالم، وعلىٰ القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما علىٰ من ليست له تلك القدرة.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ورحم الله من أعان علىٰ الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلىٰ هذا الدين.

(٥) باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي (الصحيح) عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله عَزَّ وَجَلَّ).

* الشَّرْحُ *

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هما بمعنىٰ واحد، فهو من باب عطف المترادفين.

وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف- رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلىٰ أمرين:

الأمر الأول: نفي الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئا من العبودية أحد من الخلق لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالىٰ وحده لا شريك له، وتفرده بمعاني الألوهية كلها، وهي نعوت الكمال كلها، ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتىٰ يحققه العبد بإخلاص كلمة أنه الدين لله، فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه، قاصدا بذلك وجه الله، وطالبا رضوانه وثوابه.

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله ينافي معنىٰ: لا إله إلا الله أشد المنافاة.

وبين المصنف ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن من أعظم ما يبين معنىٰ لا إله إلا الله قوله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله»، فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه: لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادا ونطقا، ولا بد من القيام بعبادة الله وحده طاعة لله وانقيادا، ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقدا وقولا وفعلا.

ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، لا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة، ولا الدعاوىٰ الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متىٰ تخلف واحد منها تخلفت البقية والله أعلم.

(٢١) باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات، وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة عند قبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيدخل فيها فيدعو، فدعاه فنهاه وقال: ألا أحدثك حديثا سمعته من أبي عن جدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيدا، ولا بيوتكم قبورا، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم يبلغني حيثما كنتم». [رواه في المختارة].

* الشَّرْحُ *

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأىٰ نصوصا كثيرة تحث علىٰ القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه، من الحث علىٰ الإنابة إلىٰ الله وانحصاره في تعلق القلب بالله رغبة ورهبة، وقوة الطمع في فضله وإحسانه والسعي؛ لتحصيل ذلك، وإلىٰ التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه، أو الغلو في أحد منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها وخصوصا حث النصوص علىٰ روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهىٰ عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهىٰ عن التشبه بالمشركين؛ لأنه يدعو إلىٰ الميل إليهم.

ونهىٰ عن أقوال وأفعال يخشىٰ أن يتوصل بها إلىٰ الشرك كل ذلك حماية للتوحيد.

ونهىٰ عن كل سبب يوصل إلىٰ الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين؛ ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها، لتكمل لهم السعادة والفلاح.

وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

(٦٥) باب ما جاء في حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: (السيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى)، قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا، فقال: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان). رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: أن ناسا قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا! فقال: (يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عَزَّ وَجَلَّ). رواه النسائي بسند جيد.

* الشَّرْحُ *

تقدم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتماما بالمقام، فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ولا يحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلىٰ الشرك، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال.

فكل قول يفضي إلىٰ الغلو الذي يخشىٰ منه الوقوع في الشرك، فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرا وباطنا، قولا وفعلا وإرادة واعتقادا.

وقد مضىٰ من التفاصيل ما يوضح ذلك.

المحور الثاني

[الشرك في الألوهية - وبعض صور الشرك الأصغر]

أرقام الأبواب المناسبة: (٣-٦-٧-٨-١٠-١٩-٣٥-٣٦)

(٣) باب الخوف من الشرك

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه؛ فقال: (الرياء)، وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندا؛ دخل النار». رواه البخاري، ولمسلم عن جابر؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار».

* الشَّرْحُ *

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة، وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي.

فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله ندا يدعوه كما يدعو الله أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقىٰ مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلا، أو يسميها بغير ذلك من الأسماء، فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلىٰ الشرك، كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة، وكالحلف بغير الله ويسير الرياء، ونحو ذلك.

فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه، كان حقا علىٰ العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعىٰ في الفرار منه، ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

وعلىٰ العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألها وإنابة وخوفا ورجاء وطمعا وقصدا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

(٦) باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قال الله تعالى ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨]،

وعن عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلا في يده حلقة من صفر. فقال: «ما هذه؟" قال: من الواهنة. فقال: "انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك؛ ما أفلحت أبدا». رواه أحمد بسند لا بأس به، وله عن عقبة بن عامر مرفوعا: «من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له»، وفي رواية: «من تعلق تميمة، فقد أشرك»، ولابن أبي حاتم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى؛ فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

❁ الشَّرْحُ ❁

هذا الباب يتوقف فهمه علىٰ معرفة أحكام الأسباب.

وتفصيل القول فيها: أنه يجب علىٰ العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببا إلا ما ثبت أنه سبب شرعا أو قدرا.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد علىٰ مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه علىٰ النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه، والله تعالىٰ يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقىٰ سببيتها جارية علىٰ مقتضىٰ حكمته؛ ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء؛ لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب علىٰ العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصدا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك في الربوبية حيث اعتقد شريكا مع الله في الخلق والتدبير.

وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو النافع الرافع وحده، ولكن اعتقدها سببا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سببا شرعيا ولا قدريا سببا، وهذا محرم وكذب علىٰ الشرع وعلىٰ القدر.

أما الشرع فإنه ينهىٰ عن ذلك أشد النهي، وما نهىٰ عنه فليس من الأسباب النافعة.

وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة، وكذلك هو من جملة وسائل الشرك، فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه.

فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها علىٰ لسان نبيه التي يتوسل بها إلىٰ رضاء الله وثوابه، ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقا قلبه بها راجيا لنفعها، فيتعين علىٰ المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده، فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضا نقص في العقل، حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه علىٰ تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلىٰ تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينها ودنيويها، والله أعلم.

(٧) باب ما جاء في الرقى والتمائم

في (الصحيح) عن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة، إلا قطعت، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد وأبو داود، وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا: «من تعلق شيئا وكل إليه». رواه أحمد والترمذي.

«التمائم»: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه. منهم ابن مسعود.

و«الرقى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العين والحمة.

و«التولة»: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

* الشَّرْحُ *

باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم، أما التمائم فهي: تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها. والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط، كما تقدم.

فمنها: ما هو شرك أكبر، كالتي تشتمل علىٰ الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين، فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، كما سيأتي إن شاء الله.

ومنها: ما هو محرم، كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها؛ لأنها تجر إلىٰ الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولىٰ تركها؛ لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلىٰ غيرها من المحرم، ولأن الغالب علىٰ متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل بها المواضع القذرة.

أما الرقىٰ ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي؛ لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي، إلا أنه لا

ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحدا من الخلق لا رقية ولا غيرها، بل ينبغي إذا سأل أحدا أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد.

وإن كانت الرقية يدعىٰ بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره، فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله.

فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم علىٰ الرقىٰ بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

(٨) باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

قال الله تعالى: { أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ } [النجم: ١٩].

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر قال: وكانت للكفار سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إنها السنن الله أكبر، قلتم: والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من قبلكم "[رواه الترمذي وصححه].

* الشَّرْحُ *

باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما، أي: فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا علىٰ أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها، فإن هذا التبرك غلو فيها، وذلك يتدرج به إلىٰ دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتىٰ مقام إبراهيم وحجرة النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد.

فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له.

فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

(١٠) باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

قال الله تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} [التوبة: ١٠٨] الآية، عن ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: نذر رجل على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينحر إبلا ببوانة، فأتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟" قالوا: لا، قال: " هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ " قالوا: لا، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم " [رواه أبو داود، وإسنادها على شرطهما].

* الشَّرْحُ *

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، ما أحسن اتباع هذا الباب فالباب الذي قبله في الأصل هو(باب ما جاء في الذبح لغير الله)، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربا إليها وشركا بالله قد صار مشعرا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله، فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعوا إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعادا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفا من التشبه المحذور.

(١٩) باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

* الشَّرْحُ *

ما ذكره المصنف في البابين وهما: باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟ باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم، وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما ولأقاربه ومعارفه خصوصا، فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلىٰ الله، فإن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتىٰ يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم لم يكفر.

من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين.

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل، ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

(٣٥) باب ما جاء في الرياء

قال الله تعالى: {قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ} [الكهف: ١١٠] الآية.

عن أبي هريرة مرفوعا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». رواه مسلم.

وعن أبي سعيد مرفوعا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟" قالوا: بلى يا رسول الله! قال: "الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر». رواه أحمد.

(٣٦) باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال الله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥-١٦].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة؛ إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

* الشَّرْحُ *

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله، وحقوق عباده، مكملا لها قاصدا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل:

فإن كان الحامل للعبد علىٰ العمل قصد مراءاة الناس، واستمر علىٰ هذا القصد الفاسد، فعمله حابط وهو شرك أصغر، ويخشىٰ أن يتذرع به إلىٰ الشرك الأكبر.

وإن كان الحامل للعبد علىٰ العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله، فظاهر النصوص أيضا بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد علىٰ العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله، فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل، وحصل لصاحبه

من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة، ويحتاج إلىٰ علاج شديد، وتمرين النفس علىٰ الإخلاص، ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة، والاستعانة بالله علىٰ دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها: فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد، ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة، فهذا ليس له في الآخرة من نصيب.

وهذا العمل علىٰ هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان، لا بد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمنا فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصا تاما ولكنه يأخذ علىٰ عمله جعلا ومعلوما يستعين به علىٰ العمل والدين، كالجعالات التي تجعل علىٰ أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب علىٰ جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل علىٰ المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينا له علىٰ قيام الدين.

ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءا كبيرا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك.

فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها والله أعلم.

المحور الثالث

(بيان بطلان الشرك وأسبابه وطرقه)

أرقام الأبواب المناسبة (١٤-١٥-١٧-١٨-٢٠-٢٧-٦٠)

باب (١٤) باب قول الله تعالى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾

[الأعراف: ١٩١-١٩٢]الآية.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]الآية.

وفي (الصحيح): عن أنس قال: «شج النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟)»، فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفيه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخيرة من الفجر - يقول: «اللَّهُمَّ العن فلانا وفلانا - بعد ما يقول سمع الله لمن حمده؛ ربنا ولك الحمد». فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وفي رواية «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾» [آل عمران: ١٢٨].

وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: «قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] -، فقال: (يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئا. يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب؛ لا أغني عنك من الله شيئا. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا. يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي؛ لا أغني عنك من الله شيئا».

* الشَّرْحُ *

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد لله من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره.

فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها، فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين ومن عبد مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلىٰ الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالىٰ هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد، ويخضع كل شيء.

فأي برهان أعظم من هذا البرهان؟! الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلىٰ لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي علىٰ وجوب توحيد الله وأنه الحق، وعلىٰ بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق علىٰ الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحما فكيف بغيره؟ فتبا لمن أشرك بالله وساوىٰ به أحدا من المخلوقين، لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه.

فنعوت الباري - تعالىٰ - وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان علىٰ أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

وكذلك صفات المخلوقات كلها، وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلىٰ ربها في كل شؤونها، وأنه ليس لها من الكمال، إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين علىٰ بطلان إلهية شيء منها.

فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه الـمعرفة إلىٰ عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصراف تعلقه بالـمخلوقين خوفا ورجاء وطمعا، والله أعلم.

(١٥) باب قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

وفي (الصحيح) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله تعالى إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كصوت السلسلة على الصفوان، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق قال الذي قالوا له الحق: قال الحق وهو العلي الكبير قال: فيسمعها مسترقو السمع وهم هكذا واحد فوق واحد، واحد فوق واحد، واحد فوق واحد، واحد فوق واحد »، وأشار سفيان بأصبعه نصبها بعضها فوق بعض وفرجها،« فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته قال فربما أدركه الشهاب قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيرمي بها إلى هذا، وهذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى تلقى على فم ساحر أو كاهن قال: فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقال: ألم يخبرنا يوم كذا بكذا، ويوم كذا بكذا، فوجدناه حقا؟ وهي الكلمة التي سمعت من السماء »

* الشَّرْحُ *

وهذا أيضا برهان عظيم آخر علىٰ وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة علىٰ كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدىٰ لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده، خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالىٰ الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

(١٧) باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي (الصحيح) عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال له أبو جهل، أو عبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: أنا على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* الشَّرح *

وهذا الباب أيضا نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاها وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق، وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات فتبين أنه الإله الحق.

(١٨) باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي الصحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا في قول الله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]. قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم عبدت».

قال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: «لما ماتوا، عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

وعن عمر؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» أخرجاه.

وقال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

ولمسلم عن ابن مسعود؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «هلك المتنطعون - قالها ثلاثا».

* الشَّرْحُ *

والغلو: هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق والغنىٰ المطلق والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه.

فمن غلا بأحد المخلوقين حتىٰ جعل له نصيبا من هذه الأشياء فقد ساوىٰ به رب العالمين، وذلك أعظم الشرك.

ومن رفع أحدا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه، وذلك وسيلة إلىٰ الشرك وترك الدين.

والناس في معاملة الصالحين ثلاث أقسام:

١-أهل الجفاء الذي يهضمونهم حقوقهم، ولا يقومون بحقهم من الحب والمولاة لهم والتوقير والتبجيل.

٢- وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

٣- وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية، ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضا يتبرؤون من أن يدعوا لأنفسهم حقا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق»

*** واعلم أن الحقوق ثلاثة:**

١- **حق خاص لله**: لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه حبا وخوفا ورجاء.

٢- **وحق خاص للرسل**: وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

٣- **وحق مشترك**: وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلا وللرسل تبعا لحق الله.

فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة، فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه علىٰ اختلاف منازلهم ومراتبهم. والله أعلم.

(٢٠) باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

روى مالك في (الموطأ)؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنا يعبد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولابن جرير بسنده عن سفيان؛ عن منصور؛ عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: «كان يلت لهم السويق؛ فمات فعكفوا على قبره، وكذا قال أبو الجوزاء»؛ عن ابن عباس: «كان يلت السويق للحاج».

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: «لعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج». [رواه أهل السنن].

* الشَّرْحُ *

ما ذكر المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم، وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما ولأقاربه ومعارفه خصوصا، فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلىٰ الله، فإن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتىٰ يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم لم يكفر.

من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين.

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل، ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

(٢٧) باب ما جاء في التطير

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١].وقوله: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر». أخرجاه، زاد مسلم: «ولا نوء ولا غول».

ولهما عن أنس؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل اللّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وله من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا «الطيرة شرك، الطيرة شرك - ثلاثا - وما منا إلا؛ ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه ، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ولأحمد من حديث ابن عمرو "من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول: اللّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

* الشَّرْحُ *

باب الطيرة وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع وغيرها، فنهىٰ الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة.

والفرق بينهما: أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة: النشاط والسرور وتقوية النفوس علىٰ المطالب النافعة.

وصفة ذلك أن يعزم العبد علىٰ سفر أو زواج أو عقدة من العقود أو علىٰ حالة من الأحوال المهمة ثم يرىٰ في تلك الحال ما يسره، أو يسمع كلاما يسره، مثل: يا راشد أو سالم أو غانم،

فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير، وليس فيه من الـمحاذير شيء.

وأما الطيرة فإنه إذا عزم علىٰ فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين وفي الدنيا، فيرىٰ أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر.

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازما علىٰ فعله أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا كما ترىٰ قد علق قلبه بذلك الـمكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك الـمكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه علىٰ هذا الوجه أثر علىٰ إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما سيحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من الـمخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات الـمفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزنا وهما وغما، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر علىٰ العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج إلىٰ الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل.

وينبغي لمن وجد شيئا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه علىٰ دفعها ويستعين بالله علىٰ ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

(٦٠) باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة». أخرجاه.

ولهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم».

ولهما عنه مرفوعا: (من صور صورة في الدنيا؛ كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ).

ولمسلم عن أبي الهياج؛ قال: «قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرا مشرفا؛ إلا سويته».

* الشَّرْحُ *

لا يحل أن يجعل لله ندا في النيات والأقوال والأفعال، والند هو المشابه ولو بوجه بعيد.

فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

المحور الرابع

(الأعمال الشركية في التوحيد)

الأبواب المناسبة (٩-١١-١٢-١٣-٢٣-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨-٢٩)

(٩) باب ما جاء في الذبح لغير الله

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: حدثني رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بأربع كلمات «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من غير منار الأرض». [رواه مسلم].

* الشَّرْحُ *

باب ما جاء في الذبح لغير الله، أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة، فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه.

وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام، فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: (أن يصرف العبد نوعا من أفراد العبادة لغير الله).

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء.

كما أن حد الشرك الأصغر هو: (كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلىٰ الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة).

فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك علىٰ فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

(١١) باب من الشرك النذر لغير الله

قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]. وقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

(١٢) باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] ، وعن خولة بنت حكيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: سمعت رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: (من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء، حتى يرحل من منزله ذلك). رواه مسلم.

(١٣) باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني بإسناده؛ أنه كان في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المنافق، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عَزَّ وَجَلَّ».

* الشَّرْح *

باب: من الشرك: النذر لغير الله

باب: من الشرك: الاستعاذة بغير الله

باب: من الشرك: أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

متىٰ فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر وهو أن (من صرف شيئا من العبادة لغير الله فهو مشرك)، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والىٰ المصنف بيانها.

فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به، وأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنىٰ علىٰ من قام به أو أمر به فهو عبادة.

فإن العبادة: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة)، والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها، وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة، أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضا من العقل، فإن أحدا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلىٰ الله في كل شؤونهم.

(٢٣) باب ما جاء في السحر

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: (الجبت): السحر، و(الطاغوت): الشيطان، وقال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان؛ في كل حي واحد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات).

وعن جندب مرفوعا «حد الساحر ضربه بالسيف». رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة؛ قال: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها؛ فقتلت ، وكذلك صح عن جندب»، قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢٤) باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر؛ حدثنا عوف؛ عن حيان بن العلاء؛ حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه؛ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

قال عوف: العيافة زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت؛ قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر؛ زاد ما زاد». [رواه أبو داود]، وإسناده صحيح.

وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر، ومن سحر، فقد أشرك، ومن تعلق شيئا؛ وكل إليه»، وعن ابن مسعود؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة؛ القالة بين الناس». [رواه مسلم]، ولهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال إن من البيان لسحرا».

* الشَّرْحُ *

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرا من أقسامه لا يتأتىٰ إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية، إلىٰ مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتىٰ يدع السحر كله قليله وكثيره؛ ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم وربما تقرب إليهم بما يحبون؛ ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

ومن جهة ما فيه من دعوىٰ علم الغيب ودعوىٰ مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلىٰ ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر.

وفيه أيضا من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله؛ ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة؛ لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس، وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور.

فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

(٢٥) باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوما».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم - وقال صحيح على شرطهما -، عن أبي هريرة: "من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد»، ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا.

* الشَّرْحُ *

باب ما جاء في الكهان ونحوهم، أي: من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق.

وذلك أن الله تعالىٰ هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعىٰ مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرهما أو صدق من ادعىٰ ذلك، فقد جعل لله شريكا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك، والتقرب إلىٰ الوسائط التي تستعين بها علىٰ دعوىٰ العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوىٰ مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلىٰ غير الله.

وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم-: «ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق».

(٢٦) باب ما جاء في النشرة

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن النشرة، فقال: «هي من عمل الشيطان». رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وفي البخاري عن قتادة؛ قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته؛ أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه. أهـ، وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر، قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان - وعليه يحمل قول الحسن - فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز.

* الشَّرْحُ *

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلىٰ الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز

باب النشرة وهو حل السحر عن المسحور، ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع، وفيه كفاية.

(٢٨) باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث؛ زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به» أ. هـ

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

❋ الشَّرْحُ ❋

التنجيم نوعان: نوع يسمىٰ (علم التأثير): وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الكونية، فهذا باطل، ودعوىٰ لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعىٰ ذلك، وهذا ينافي التوحيد؛ لما فيه من هذه الدعوىٰ الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: يسمىٰ (علم التسيير): وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب علىٰ القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع، إذا كان وسيلة إلىٰ معرفة أوقات العبادات، أو إلىٰ الاهتداء به في الجهات.

فيجب التفريق بين ما نهىٰ عنه الشارع وحرمه، وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

(٢٩) باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قال الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة».

وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» رواه مسلم.

ولهما عن زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: صلى لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء...الخ الحديث...

* الشَّرْحُ *

باب الاستسقاء بالنجوم لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم، وإضافتها إليه قولا واعترافا واستعانة بها علىٰ طاعته كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا، ينافي هذا المقصود أشد المنافاة؛ لإضافة المطر إلىٰ النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلىٰ الله، فإنه الذي تفضل بها علىٰ عباده.

ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولىٰ ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتىٰ يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلىٰ جميع الخلق، ويضيفها إليه ويستعين بها علىٰ عبادته وذكره وشكره.

وهذا الموضع من محققات التوحيد، وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

المحور الخامس

(من الأعمال القلبية)

الأبواب المناسبة (٣٠-٣١-٣٢-٣٧-٣٨)

(٣٠) باب قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: {أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ} [التوبة: ٢٤]

عن أنس؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». أخرجاه.

ولهما عنه؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ثلاث من كن فيه؛ وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار».

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره.

وعن ابن عباس قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا». رواه ابن جرير.

* الشَّرْحُ *

أصل التوحيد وروحه: إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتىٰ تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، ويقدم طاعتهم علىٰ طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

وهناك قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة، فإن أعانت علىٰ محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلىٰ ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات. والله أعلم.

(٣١) باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعا «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس؛ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس». رواه ابن حبان في صحيحه.

* الشَّرْحُ *

هذا الباب عقده المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك.

ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلىٰ من يخافه، وكان يدعو إلىٰ طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه أشرك في هذه العبادة- التي هي من أعظم واجبات القلب- غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله علىٰ خوفه لله.

وأيضا فمن خشي الله وحده علىٰ هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعل لله ندا في الخشية، كمن جعل لله ندا في الـمحبة؛ وذلك كمن يخشىٰ من صاحب القبر أن يوقع به مكروها، أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك، مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعيا كمن يخشىٰ من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشىٰ ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من الـمؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفا محققا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم.

وإن كان هذا خوفا وهميا كالخوف الذي ليس له سبب أصلا، أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتىٰ أن خواص الـمؤمنين وأقوياءهم تنقلب الـمخاوف في حقهم أمنا وطمأنينة؛ لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم؛ ولهذا أتبعه بهذا الباب.

(٣٢) باب قول الله تعالى:

{وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]. وقوله: {إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ} [الأنفال: ٢]. وقوله {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} [الأنفال: ٦٤]. وقوله: {وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ} [الطلاق: ٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ألقي في النار، وقالها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] رواه البخاري والنسائي.

* الشَّرْحُ *

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، **فبعد** هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة.

فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو مشرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به، وكل إليه وخاب أمله.

(٣٧) باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله؛ فقد اتخذهم أربابا من دون الله

قال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله! وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!).

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته؛ ويذهبون إلى رأي سفيان!! والله تعالى يقول: {فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك. وعن عدي بن حاتم؛ أنه سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هذه الآية : {ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم! قال: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟)، فقلت: بلى، قال: (فتلك عبادتهم). رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣٨) باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] الآية. وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

* الشَّرْحُ *

باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

باب: قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصىٰ، بحيث تكون الطاعات كلها تبعا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء علىٰ هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله تبعا لها فقد اتخذهم أربابا من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم، ويقدم حكمهم علىٰ حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله.

المحور السادس

(الشرك في توحيد الربوبية والأسماء والصفات)

الأبواب المناسبة (٣٣-٣٤-٣٩-٤٠-٤٢-٤٨-٥٨-٥٩-٦٣-٦٤-٦٦)

(٣٣) باب قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقوله: {قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

وعن ابن مسعود؛ قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله». رواه عبد الرزاق.

* الشَّرْحُ *

مقصود الترجمة أنه يجب علىٰ العبد أن يكون خائفا من الله، راجيا له راغبا راهبا، إن نظر إلىٰ ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلىٰ فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، وإن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتلي بمعصيته رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم واليسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشىٰ بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشىٰ من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء وهذا هو الواجب، وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشىٰ علىٰ العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتىٰ يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارىٰ به الرجاء حتىٰ يأمن مكر الله وعقوبته، فمتىٰ بلغت به الحال إلىٰ هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد علىٰ نفسه ويتجرأ علىٰ المحارم فيصر عليها ويصمم علىٰ الإقامة علىٰ المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم علىٰ الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتىٰ يصير له هذا وصفا وخلقا لازما، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتىٰ وصل إلىٰ هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوىٰ خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلىٰ الكسل، لعلم أن أدنىٰ سعي يوصله إلىٰ ربه، وإلىٰ رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضا غافلا مقصرا عن الواجبات، منهمكا في المحرمات، حتىٰ يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقىٰ في قلبه من الإيمان شيء، لأن الإيمان يحمل علىٰ خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدا جاهلا معجبا بنفسه مغرورا بعمله فلا يزال به جهله حتىٰ يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرىٰ أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنا من مكر الله متكلا علىٰ نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنىٰ علىٰ نفسه.

فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

(٣٤) باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى {وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]، قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»، ولهما عن ابن مسعود مرفوعا: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

وعن أنس؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير؛ عجل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر؛ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». حسنه الترمذي.

* الشَّرْحُ *

باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله، أما الصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان بل هما أساسه وفرعه، فإن الإيمان كله صبر علىٰ ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور علىٰ ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما. فالصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم، ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلىٰ معرفته والعمل به.

فإن العبد متىٰ علم أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها علىٰ العبد رضي بقضاء الله، وسلم لأمره وصبر علىٰ المكاره، تقربا إلىٰ الله، ورجاء لثوابه، وخوفا من عقابه، واغتناما لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

(٣٩) باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

قال الله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي صحيح البخاري؛ قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!».

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس؛ أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفات – استنكارا لذلك –، فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه»، انتهى.

ولما سمعت قريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر (الرحمن) أنكروا ذلك؛ فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

* الشَّرْحُ *

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله، وبأسمائه، وصفاته.

وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئا من أسماء الله وصفاته فقد أتىٰ بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

(٤٠) باب قول الله تعالى:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣]

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل هذا مالي؛ ورثته عن آبائي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا،

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه «وأن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» - الحديث: وقد تقدم؛ وهذا كثير في الكتاب والسنة؛ يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة.

* الشَّرْحُ *

الواجب علىٰ الخلق إضافة النعم إلىٰ الله قولا واعترافا كما تقدم، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر، ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلىٰ الله، وتارة يضيفها إلىٰ نفسه وعمله وإلىٰ سعي غيره كما هو جار علىٰ ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب علىٰ العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلىٰ موليها، وأن يجاهد نفسه علىٰ ذلك ولا يتحقق الإيمان إلا بإضافة النعم إلىٰ الله قولا واعترافا.

فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني علىٰ ثلاثة أركان:

١-اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلىٰ غيره.

٢- والتحدث بها والثناء علىٰ الله بها.

٣- والاستعانة بها علىٰ طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم.

(٤٢) باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله». رواه ابن ماجه بسند حسن.

* الشَّرْح *

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين علىٰ خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه؛ لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه.

وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم، وإجلالهم يوجب عليك أن ترضىٰ بالحلف بالله.

وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق، أو دعاء الخصم علىٰ نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك علىٰ حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب، وحلف علىٰ ما تيقن كذبه فيه، فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلىٰ يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد؛ لأن حالته متيقنة والله أعلم.

(٤٨) باب قول الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد:« هذا بعملي وأنا محقوق به».

وقال ابن عباس: يريد: من عندي.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: (على علم مني بوجوه المكاسب).

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل، وهذا معنى قول مجاهد أوتيته على شرف.

ثم ذكر حديث الأقرع والأعمى والأبرص الطويل .....الخ

* الشَّرْحُ *

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له علىٰ الله من الحق فإن هذا مناف للتوحيد؛ لأن المؤمن حقا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني علىٰ الله بها، ويضيفها إلىٰ فضله وإحسانه، ويستعين بها علىٰ طاعته ولا يرىٰ له حقا علىٰ الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم والعجب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

(٥٨) باب قول الله تعالى:

باب قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله ﴿وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: «فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بظنهم أن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح.

وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.... فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا إخالك ناجيا».

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر الله به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان.

وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية الـمنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله ونفي لكماله، وتكذيب لخبره وشك في وعده. والله أعلم.

(٥٩) باب ما جاء في منكري القدر

قال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده؛ لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه؛ حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول النبي ﷺ "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لابنه:" يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك؛ وما أخطأك لم يكن ليصيبك". سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

* الشَّرْحُ *

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة.

فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر: فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر: العلم بأن الله لم يجبر العباد علىٰ خلاف ما يريدون، بل جعلهم مختارين لطاعتهم ومعاصيهم.

(٦٣) باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك». رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة؛ أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته».

(٦٤) باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: «جاء أعرابي إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله! نهكت الأنفس وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله». فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبحان الله! سبحان الله!"، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: "ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه»، وذكر الحديث. رواه أبو داود.

* الشَّرْحُ *

باب: الإقسام علىٰ الله

وباب: لا يستشفع بالله علي خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام علىٰ الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال علىٰ الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتىٰ يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله علىٰ خلقه فهو تعالىٰ أعظم شأنا من أن يتوسل به إلىٰ خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبا دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الكائنات بأسرها.

(٦٦) باب ما جاء في قول الله تعالى:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: (جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدت نواجذه - تصديقا لقول الحبر - ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة).

ثم ذكر المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ آثارا كثيرة في إثبات قدرة الله وعظمته.

* الشَّرْحُ *

ختم المصنف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كتابه بهذه الترجمة وهذا آخر باب في كتاب التوحيد.

وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، والمحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه وسر الإخلاص.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، إنه جواد كريم.

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها.

المحور السابع
(شبهات القبوريين)
الأبواب المناسبة : (٢٢-١٦-٥٠)

(٢٢) باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾، وقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[المائدة: ٦٠]، وقوله تعالى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]

وعن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». أخرجاه، ثم ذكر حديث ثوبان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ الطويل.

* الشَّرْحُ *

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد علىٰ من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمىٰ بالإسلام أنه يبقىٰ علىٰ إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمىٰ ذلك توسلا لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله، لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع- وهو العبادة- فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنا، وخرج بذلك عن الدين، ولم ينفعه انتسابه إلىٰ الإسلام، فكم انتسب إلىٰ الإسلام من مشرك وملحد وكافر، منافق. والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

(١٦) باب الشفاعة

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] ، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] ، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ،وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] ،وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

* الشَّرْحُ *

باب الشفاعة إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاها عظيما ومقامات عالية، ندعوهم؛ ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلىٰ الوجهاء عند الملوك والسلاطين؛ ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم، وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك، الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فأبطل الله هذا الزعم، وبين أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضىٰ إلا توحيده وإخلاص العمل له، فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة، وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة، وهو الذي أذن لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها وأناله المقام المحمود، فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة، وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع، وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة علىٰ إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء،

لا استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون الـمعبود وحده.

(٥٠) باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: يشركون، وعنه؛ سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

* الشَّرْحُ *

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنىٰ، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنىٰ، فمن دعاه لحصول الرزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب، ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنىٰ وتحصيلها في القلوب حتىٰ تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيما لله وإجلالا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقا له وحمدا وشكرا.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعا لله وخشوعا وانكسارا بين يديه.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنىٰ واللطف تملأ القلب افتقارا واضطرارا إليه، والتفاتا إليه كل وقت، في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يحصل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد وروحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين.

وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلىٰ، وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة.

والإلحاد أنواع:

١- إما أن ينفي الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.

٢-وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.

٣-وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنىٰ، فشبهوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظا أو معنىٰ، تصريحا أو تأويلا أو تحريفا، وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.

المحور الثامن

(شرك الألفاظ)

الأبواب المناسبة: (٤١-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٩-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٦١-٦٢)

(٤١) باب قوله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك؛ أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله؛ وحياتك يا فلان! وحياتي! وتقول: لولا كليبة هذا، لأتانا اللصوص! ولولا البط في الدار؛ لأتى اللصوص! وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت! وقول الرجل: لولا الله وفلان! لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك». رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

* الشَّرْحُ *

الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية، يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كـ «لولا الله وفلان»، «وهذا بالله وبك»، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كـلولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت. ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد.

والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلىٰ إرادة الله وإلىٰ الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: «لولا الله ثم كذا»؛ ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره.

فلا يتم توحيد العبد حتىٰ لا يجعل لله ندا في قلبه وقوله وفعله.

(٤٣) باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة؛ أن يهوديا أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: إنكم تشركون، تقولون: «ما شاء الله وشئت! وتقولون: والكعبة! فأمرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت». رواه النسائي وصححه.

وله أيضا عن ابن عباس؛ أن رجلا قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:« ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده». ثم ذكر حديث الطفيل عند ابن ماجه...الخ

* الشَّرْحُ *

باب قول ما شاء الله وشئت هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

(٤٤) باب من سب الدهر فقد آذى الله

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر - وأنا الدهر - أقلب الليل والنهار». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

* الشَّرْحُ *

هذا واقع كثيرا في الجاهلية، وتبعهم علىٰ هذا كثير من الفساق والمجان والحمقىٰ، إذا جرت تصاريف الدهر علىٰ خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه.

وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء، فإنه مدبر مصرف، والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب علىٰ مدبره.

وكما لأنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد.

أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضىٰ بتدبير الله ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.

(٤٥) باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: »إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لا مالك إلا الله«، قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: »أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه«.

قوله (أخنع): يعني أوضع.

(٤٦) باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح؛ أنه كان يكنى أبا الحكم؛ فقال له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم)، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني؛ فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: (ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟)، قلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: (فمن أكبرهم؟) قلت: شريح، قال: (فأنت أبو شريح). رواه أبو داود وغيره.

* الشَّرْحُ *

هاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب أن لا يجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمىٰ أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته، كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتىٰ في الألفاظ التي يخشىٰ أن يتدرج منها إلىٰ أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

(٤٧) باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

وعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض -: «أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه القراء» ....الخ الحديث

* الشَّرْحُ *

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول، أي فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين؛ لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله.

ومن الإيمان تعظيم ذلك، ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد؛ لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء.

فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون.

فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرا وأعظم فسادا.

والهازل بشيء منها من هذا النوع.

(٤٩) باب قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: (اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك - حاشا عبد المطلب -).

وعن ابن عباس؛ قال: (لما تغشاها آدم، حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني إيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن - يخوفهما - سمياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه؛ فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠]). رواه ابن أبي حاتم.

* الشَّرْحُ *

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله علىٰ إنعامه وأن لا يعبدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

(٥١) باب لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال: كنا إذا كنا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تقولوا السلام على الله؛ فإن الله هو السلام».

* الشَّرْحُ *

وقد بين صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا المعنىٰ بقوله: «فإن الله هو السلام» فهو تعالىٰ السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

(٥٢) باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يقل أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت؛ اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت؛ ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له».

ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

* الشَّرْحُ *

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة علىٰ الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلبا ملحا جازما، وهذا الطلب عين العبودية ومخها.

ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور بهش، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالىٰ لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد، فالعبد يسأل ربه ويعلقه علىٰ اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: «اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي »، وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها علىٰ ضرها، فالداعي يعلقهما علىٰ اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علما وقدرة ورحمة ولطفا.

(٥٣) باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك؛ وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي؛ وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

* الشَّرْحُ *

وهذا علىٰ وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلىٰ فتاي وفتاتي، تحفظا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو علىٰ وجه بعيد، وليس حراما، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذورا بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل علىٰ كمال الإخلاص، خصوصا هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا الـمقام.

(٥٤) باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من سأل بالله، فأعطوه، ومن استعاذ بالله، فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه». رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

(٥٥) باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود.

* الشَّرْحُ *

الباب الأول خطاب للمسؤول: وأنه إذا أدلىٰ علىٰ الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احتراما وتعظيما لحق الله، وأداء لحق أخيه حيث أدلىٰ بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني خطاب للسائل: وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلىٰ وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنىٰ هو الذي يسأل بوجه الله.

وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه.

(٥٦) باب ما جاء في الـ (لو)

وقال الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن - لو - تفتح عمل الشيطان).

* الشَّرْحُ *

اعلم أن استعمال العبد للفظة: «لو» علىٰ قسمين: مذموم ومحمود.

١ -أما المذموم: فكأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان؛ لأن فيه محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه وليس فيها نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب علىٰ الله وعلىٰ قدره، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده، فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا، نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما، وأما المحمود من ذلك فأن يقولها العبد تمنيا للخير أو تعليما للعلم والخير.

كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولأهللت بالعمرة»، وقوله في الرجل المتمني للخير: «لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان»، و«لو صبر أخي موسىٰ ليقص الله علينا من نبئهما»، أي في قصته مع الخضر.

وكما أن «لو» إذا قالها متمنيا للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيا للشر فهو مذموم. فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها.

إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمني الشر كان مذموما، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودا؛ ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

(٥٧) باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به». صححه الترمذي.

❊ الشَّرْحُ ❊

هذا نظير ما سبق في سب الدهر، إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالريح، ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنىٰ في قلبه غالبا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

(٦١) باب ما جاء في كثرة الحلف

قال الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ قال سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب». أخرجاه.

وعن سلمان؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه». رواه الطبراني بسند صحيح.

* الشَّرْحُ *

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدا للأمر المحلوف عليه، وتعظيما للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا تحلف بالله إلا صادقا، ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

(٦٢) باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١].

عن بريدة قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا؛ فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا ....»الخ الحديث.

* الشَّرْحُ *

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشىٰ منها نقض العهود والإخلال بها، بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله.

فأنه متىٰ وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركا لتعظيم الله وارتكابا لأكبر المفسدتين كما نبه عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي ذلك أيضا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلىٰ تفضيله واتباعه.

تمت والحمد لله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين